الفصل الثالث

اضطهاد الشيعة
بعد رحيل الإمام

لم يكن الإمـام على بن أبى طالب عليه السلام بالذى يخـاف الموت، وهو الذى جندل صناديد الشرك من بنى أمية وعمرو بن عبد ود ويهود خيبر، وهو الذى طالما رأى أشقى الناس عبد الرحمن بن ملجم أمامه وكان يعلم مراده، فقال ليسمعه:

أريـــد حياته ويريد قتلى عذيرك من خليـــل من مراد

ولذا وقبل أن يرحل إمامنا على بن أبى طالب عليه السلام عن هذه الدنيا ليستريح من نصبها وتعبها، أوصى شيعته وأعلمهم بما سيجرى عليهم من الابتلاء فها هو يقول:

أما إنّه سيظهر عليكم بعدى رجل رحب البلعوم، مندحق البطن يأكل ما يجد، ويطلب ما لا يجد، فاقتلوه، ولن تقتلوه! ألا وإنّه سيأمركم بسبّى والبراءة منّى؛ فأمّا السّب فسبّونى، فإنّه لى زكاة، ولكم نجاة؛ وأما البراءة فلا تتبرءوا منّى، فإنّى ولدت على الفطرة، وسبقت إلى الإيمان والهجرة[1].

أما لماذا اعتمد معاوية سياسة سب الإمام على بن أبى طالب وشتمه على المنابر وعرض الناس للبراءة منه، فالسبب كان أعمق بكثير من مجرد التشفى والانتقام من الإمام، بل كان الهدف هو اجتثاث بذرة التشيع للإمام على ولأهل البيت عليهم السلام من خلال القضاء على تلك النواة الشيعية الصلبة الملتفة حول الإمام.

الذين كانوا مع الإمام لم يكونوا جميعًا من العارفين بحقه على الصورة التى ذكرناها سابقا، بل كان من بينهم ممن لم يؤتوا من العلم والمعرفة إلا قليلا، وهذا هو دأب الناس فى كل زمان ومكان، فمنهم العالم الربانى، ومنهم العوام الذين يكتفون بمعرفة أبسط قواعد الإسلام، ومنهم الشياطين الذين يسعون فى الأرض فسادًا.

كان الصنف الأول هو المستهدف بالتصفية من معاوية بن أبى سفيان، فما أن ينطق بكلمة احتجاج حتى يقتل وتلقى جثته تحت التراب أو يدفن حيّا، أما الصنف الثانى

(١) نهج البلاغة خطبة ٥٦.

فكان مستهدفًا هو الآخر، ولكن بالتغييب ومحو الذاكرة من خلال سياسة الإصرار على سب الإمام على المنابر فى كل صلاة جمعة.

تكشف لنا هذه السياسة الأموية الاستئصالية عن السبب وراء حالة الفزع التى قد تنتاب البعض حينما يتهم بأنه من الشيعة، حيث كانت هذه التهمة تعنى القتل، أو تمضية ما تبقى من العمر فى غياهب السجون، ومهما حاولنا أن نشرح للناس أو نفصل أن المقصود بكلمة شيعة هو التشيع لعلى بن أبى طالب وأهل البيت، وأن مثل هذا التشيع والانتماء هو مصدر فخر لصاحبه ولا يمكن أن يكون العكس صحيحًا، فالحاجز النفسى الذى تراكم عبر تلك القرون المتطاولة، والذى أسسه الأمويون وسار على منواله العباسيون، وكثير ممن تلوهم ممن حكم المسلمين ما زال قائمًا بين أبناء الفرق والتيارات الإسلامية الفكرية والمذهبية.

معاوية وحربه على الشيعة

يروى المؤرخون:

لما ولّى معاوية بن أبى سفيان على الكوفة المغيرة بن شعبة فى جمادى سنة ٤١هـ دعاه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال له:

أما بعد فإن لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وقد قال المتلمس:

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا وما علم الإنسان إلا ليعلما

وقد يجزى عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادًا على بصرك بما يرضينى ويسعد سلطانى ويصلح به رعيتى، ولست تاركًا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم على بن أبى طالب وذمه والعيب على أصحاب علىّ والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وإطراء شيعة عثمان والإدناء لهم والاستماع منهم[1].

وظل المغيرة بن شعبة عاملاً على الكوفة سبع سنين وأشهرًا، لا يدع ذم على بن أبى طالب والوقوع فيه، فكان حُجر بن عدى إذا سمع ذلك قال بل إياكم فذم الله ولعن، ثم قام فقال إن الله عز و جل يقول ﴿**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ**﴾ [النساء: ١٣٥]

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٥ ص ٢٥٤.

وأنا أشهد أن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وأن من تزكون وتطرون هو أولى بالذم. فيقول المغيرة: يا حجر ويحك اتق السلطان، اتق غضبه وسطوته، فإن غضبة السلطان أحيانًا مما يهلك أمثالك. ثم يكف عنه ويصفح، حتى كان فى آخر إمارته قام المغيرة فقال فى علىّ وعثمان كما كان يقول، فقام حجر بن عدى فنعر نعرة بالمغيرة سمعها كل من كان فى المسجد وخارجًا منه وقال: إنك لا تدرى بمن تولع من هرمك أيها الإنسان، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعًا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين. فقام معه أكثر من ثلثى الناس يقولون صدق والله حجر وبر، مر لنا بأعطياتنا فإننا لا ننتفع بقولك ذا ولا يجدى علينا شيئًا، وأكثروا فى مثل هذا القول ونحوه.

ثم مات المغيرة سنة إحدى وخمسين. وجاء زياد بن أبيه ـ وفى قول: ابن سمية ـ واليًا على الكوفة، فقام خطيبًا يوم الجمعة، فأطال الخطبة وأخر الصلاة، فقال له حجر ابن عدى الصلاة، فمضى فى خطبته، فلما خشى حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من حصى وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية فى أمره وألح عليه، فأمر معاوية بن أبى سفيان باعتقاله، فلما أخذ وجىء به إلى زياد بعد أن أعطاه الأمان، فقال له زياد: مرحبًا بك أبا عبد الرحمن!! حرب فى أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس! على أهلها تجنى براقش، فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة، وإنى لعلى بيعتى، فقال زياد هيهات يا حُجر تشج بيد وتأسو بأخرى، وتريد إذ أمكن الله منك أن نرضى!! لا والله.. ثم أمر به إلى السجن.

الطعن بعد الموت!!

قتل عمرو بن الحمق الخزاعى

ولم يكن لزياد من همة إلا طلب ما تبقى من أصحاب حُجر بن عدى الكندى، فهرب عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد إلى جبال الموصل، ثم لحق بهم عسكر بنى أمية، فأخذوا عمرو بن الحمق وكان فى شدة المرض، وأفلت رفاعة بن شداد، فأمر معاوية بطعنه [أى: طعن عمرو] تسع طعنات، فأخرج فطعن تسع طعنات، فمات فى الأولى منها أو الثانية.

الموت أو السب!!.

ثم أخذ صيفى بن فسيل من رءوس أصحاب حُجر وجىء به إلى زياد، فقال له يا عدو الله ما تقول فى أبى تراب؟؟ قال ما أعرف أبا تراب؟؟ قال ما أعرفك به!! قال ما أعرفه، قال أما تعرف على بن أبى طالب؟ قال بلى، قال فذاك أبو تراب، قال كلا ذاك أبو الحسن والحسين، فقال له صاحب الشرطة يقول لك الأمير هو أبو تراب وتقول أنت لا؟ قال وإن كذب الأمير أتريد أن أكذب وأشهد له على باطل كما شهد؟!! قال له زياد وهذا أيضًا مع ذنبك، علىّ بالعصا. فأتى بها فقال ما قولك فى علىّ؟ قال أحسن قول أنا قائله فى عبد من عباد الله أقوله فى أمير المؤمنين، قال اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلصق بالأرض، فضرب حتى لزم الأرض، ثم قال أقلعوا عنه: ما قولك فى علىّ؟؟ قال والله لو شرحتنى بالمواسى والمدى ما قلت إلا ما سمعت منى، قال لتلعننه أو لأضربن عنقك؟ قال إذًا تضربها والله قبل ذلك، فإن أبيت إلا أن تضربها رضيت بالله وشقيت أنت، قال ادفعوا فى رقبته، ثم قال أوقروه حديدًا وألقوه فى السجن[1].

وبعد أن جمع زياد من أصحاب حُجر بن عدى اثنى عشر رجلاً فى السجن، دعا رؤساء الأرباع فشهد هؤلاء أن حُجرًا جمع إليه الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب، وأظهر عذر أبى تراب (على بن أبى طالب) والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه، وأن هؤلاء الذين معه هم رءوس أصحابه وعلى مثل رأيه. ثم نظر زياد فى شهادة الشهود وقال: ما أظن هذه شهادة قاطعة، وأحب أن يكون الشهود أكثر من أربعة، فدعا الناس ليشهدوا عليه، وقال زياد: على مثل هذه الشهادة فاشهدوا، أما والله لأجهدن على قطع خيط عنق الخائن الأحمق.

تسيير حُجر وأصحابه إلى معاوية لقتلهم

ثم دفع زياد بن سمية حجر بن عدى وأصحابه من شيعة على إلى وائل بن حجر

(١) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٥ ص ٢٦٦ ط دار المعارف ١٩٧٩م.

الحضرمى وكثير بن شهاب، وأمرهما أن يسيرا بهم إلى الشام، فخرجوا عشية وسار معهم صاحب الشرطة حتى أخرجهم من الكوفة.

ثم ساروا حتى انتهوا إلى مرج عذراء عند دمشق، وهم اثنا عشر رجلاً، وأتبعهم زياد برجلين مع عامر بن الأسود، فتم عددهم أربعة عشر رجلاً، فحبسوا بمرج عذراء، فبعث معاوية إلى وائل بن حجر وكثير بن شهاب فأدخلهما وأخذ كتابهما فقرأه على أهل الشام فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين من زياد بن أبى سفيان، أما بعد، فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البلاء، فأداله من عدوه وكفاه مؤونة من بغى عليه، إن طواغيت الترابية السبئية، رأسهم حجر بن عدى خالفوا أمير المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا لنا الحرب، فأظهرنا الله عليهم وأمكننا منهم، وقد دعوت خيار أهل المصر وأشرافهم وذوى النهى والدين، فشهدوا عليهم بما رأوا وعلموا، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين، وكتبت شهادة صلحاء أهل المصر وخيارهم فى أسفل كتابى هذا.

فلما قرأ معاوية الكتاب وشهادة الشهود عليهم، قال ماذا ترون فى هؤلاء النفر الذين شهد عليهم قومهم بما تسمعون؟ فقال له يزيد بن أسد البجلى: أرى أن تفرقهم فى قرى الشام فيكفيكهم طواغيتها.

وكتب معاوية إلى زياد: أما بعد فقد فهمت ما اقتصصت به من أمر حُجر وأصحابه وشهادة من قبلك عليهم، فنظرت فى ذلك، فأحيانًا أرى قتلهم أفضل من تركهم، وأحيانًا أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم، والسلام.

فكتب إليه زياد مع يزيد بن حجية التميمى: أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت رأيك فى حُجر وأصحابه، فعجبت لاشتباه الأمر عليك فيهم وقد شهد عليهم بما قد سمعت من هو أعلم بهم، فإن كانت لك حاجة فى هذا المصر فلا تردن حُجرًا وأصحابه إلىّ.

فقام مالك بن هبيرة فسأله فى حُجر فلم يشفعه، فغضب وجلس فى بيته، فبعث معاوية هدبة بن فياض القضاعى من بنى سلامان بن سعد والحصين بن

عبد الله الكلابى وأبا شريف البَدِّى، فأتوهم عند المساء، فقال الخثعمى حين رأى الأعور مقبلاً: يقتل نصفنا وينجو نصفنا، فقال سعيد بن نمران اللهم اجعلنى ممن ينجو وأنت عنى راض، فقال عبد الرحمن بن حسان العنزى اللهم اجعلنى ممن تكرم بهوانهم وأنت عنى راض، فطالما عرضت نفسى للقتل فأبى الله إلا ما أراد. فجاء رسول معاوية إليهم بتخلية ستة وبقتل ثمانية، فقال لهم رسل معاوية: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علىّ واللعن له، فإن فعلتم هذا تركناكم وإن أبيتم قتلناكم، وإن أمير المؤمنين يزعم أن دماءكم قد حلت له بشهادة أهل مصركم عليكم، غير أنه قد عفا عن ذلك، فابرءوا من هذا الرجل نخل سبيلكم. قالوا: لسنا فاعلين. فأمروا بقيودهم فحلت وبقبورهم فحفرت وأدنيت أكفانهم، فقاموا الليل كله يصلون، فلما أصبحوا، قال أصحاب معاوية: يا هؤلاء قد رأيناكم البارحة أطلتم الصلاة وأحسنتم الدعاء، فأخبرونا ما قولكم فى عثمان؟ قالوا: هو أول من جار فى الحكم وعمل بغير الحق، فقال أصحاب معاوية: أمير المؤمنين كان أعلم بكم، ثم قاموا إليهم وقالوا: تبرءون من هذا الرجل؟ قالوا: بل نتولاه. فأخذ كل رجل منهم رجلاً ليقتله.

قال لهم حُجر: دعونى أصلى ركعتين.

فقالوا له: صلّ. فصلى ثم انصرف، فقال والله ما صليت صلاة قط أقصر منها، ولولا أن تروا أن ما بى جزع من الموت لأحببت أن أستكثر منها، ثم قال اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا، أما والله لئن قتلتمونى بها إنى لأول فارس من المسلمين سلك فى واديها، وأول رجل من المسلمين نبحته كلابها. فمشى إليه هدبة الأعور بالسيف فأرعدت فصائله، فقال زعمت أنك لا تجزع من الموت فأنا أدعك فابرأ من صاحبك، فقال ما لى لا أجزع؟ وأنا أرى قبرًا محفوراً وكفنًا منشوراً وسيفًا مشهوراً، وإنى والله إن جزعت لا أقول ما يسخط الرب، فقيل له مد عنقك، فقال إن ذلك لدم ما كنت لأعين عليه. فقدم فضربت عنقه، وأقبلوا يقتلونهم واحدًا واحدًا حتى قتلوا ستة.

قال عبد الرحمن بن حسان العنزى وكريم بن عفيف الخثعمى : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين، فنحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته، فبعثوا إلى معاوية فأخبروه، فبعث ائتونى بهما .

فلما دخل عليه الخثعمى قال له : الله الله يا معاوية، إنك منقول من هذه الدار الزائلة إلى الدار الآخرة الدائمة، ومسئول عما أردت بقتلنا وفيم سفكت دماءنا؟ فقال معاوية : ما تقول فى علىّ؟ قال أقول فيه قولك، أتتبرأ من دين علىّ الذى كان يدين الله به؟ فسكت وكره معاوية أن يجيبه . فقام شمر بن عبد الله الخثعمى فاستوهبه فقال : هو لك غير أنى حابسه شهرًا فحبسه، فكان يرسل إليه بين كل يومين فيكلمه، ثم أطلقه على أن لا يدخل الكوفة ما دام له سلطان، فنزل الموصل فكان يقول لو قد مات معاوية قدمت المصر، فمات قبل معاوية بشهر .

عقوبة الدفن حيّا

ثم أقبل على عبد الرحمن بن حسان فقال له : إيه يا أخا ربيعة، ما قولك فى علىّ؟ قال دعنى ولا تسألنى فإنه خير لك . قال والله لا أدعك حتى تخبرنى عنه . قال أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرًا ومن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والعافين عن الناس . قال فما قولك فى عثمان؟ قال هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق . قال قتلت نفسك . قال بل إياك قتلت . لا ربيعة بالوادى ـ يعنى أنه ليس ثم أحد من قومه فيتكلم فيه ـ فبعث به معاوية إلى زياد وكتب إليه : أما بعد، فإن هذا العنزى شر من بعثت به، فعاقبه بالعقوبة التى هو أهلها واقتله شر قتلة، فلما قدم به على زياد، بعث به إلى قس الناطف فدفنه حيّا .

فقتل من أصحاب حُجر :

شريك بن شداد الحضرمى ـ صيفى بن فسيل الشيبانى ـ قبيصة بن ضبيعة العبسى ـ محرز بن شهاب المنقرى ـ كدام بن حيان العنزى ـ عبد الرحمن بن حسان العنزى .

ونجا منهم:

كريم بن عفيف الخثعمى ـ عبد الله بن حوية التميمى ـ عاصم بن عوف البجلى ـ ورقاء بن سمى البجلى ـ أرقم بن عبد الله الكندى ـ عتبة بن الأخنس السعدى ـ سعد بن نمران الهمدانى[1].

مرثية حجر بن عدى

روى ابن جرير الطبرى[2] فى أحداث عام ٥١ للهجرة:

وقالت هند بنت زيد بن مخرمة الأنصارية ترثى حُجرًا:

ترفع أيها القمر المنيـــــــر ... تبصر هل ترى حُجرا يسيـــر
يسير إلى معاويـــــة بن حرب ... ليقتله كما زعـم الأمـــــير
تجبرت الجبابر بعد حُجـــــر ... وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البـلاد بها محولا ... كأن لم يحيها مزن مطيـــــر
ألا يا حجـــر حُجر بنى عدى ... تلقتك السلامة والســـرور
أخاف عليك ما أدرى عديّـــا ... وشيخًا فى دمشق له زئيـــر
يرى قتل الخيار عليه حقـّـــا ... له من شر أمته وزيـــــــر
ألا يا ليت حُجـــرًا مات موتا ... ولم ينحر كما نحر البعيـــر
فإن تهلك فكل زعيم قـــوم ... من الدنيا إلى هـلك يصيـــر

وقالت الكندية ترثى حـــــجرًا:

دمـــوع عينى ديمة تقطـــر ... تبكى على حجر وما تفتـــر
لو كانت القـــوس على أسره ... ما حمل السـيف له الأعـــور

***

(١) الأغانى للأصفهانى ١٦: ٢ - ١١، عيون الأخبار لابن قتيبة ١، تاريخ الطبرى ٦ : ١٤١ - ١٥٦، مستدرك الحاكم ٣ : ٤٦٨، تاريخ ابن عساكر ٤ : ٨٤ وجـ٦ : ٤٥٩، الكامل لابن الأثير ٣ : ٢٠٢ - ٢٠٨، تاريخ ابن كثير ٨ : ٤٩ - ٥٥.

(٢) تاريخ الرسل والملوك «تاريخ الطبرى» جـ ٥ ص ٢٨٠.

عمر بن عبد العزيز يبطل سب الإمام

ظلت سياسة سب الإمام على بن أبى طالب على المنابر جزءًا ثابتًا من المنهج الأموى لم يجر العدول عنه إلا أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث يروى ابن الأثير[1]:

كان بنو أمية يسبون أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام إلى أن ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، فترك ذلك وكتب إلى العمال فى الآفاق بتركه.

وكان سبب محبته عليًا كما قال: كنت بالمدينة أتعلم العلم وكنت ألزم عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، فبلغه عنى شىء من ذلك فأتيته يومًا وهو يصلى، فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته التفت إلىَّ فقال لى: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم؟؟

قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذى بلغنى عنك فى علىّ؟ فقلت: معذرة إلى الله وإليك! وتركت ما كنت عليه.

وكان أبى إذا خطب فنال من علىّ رضي الله عنه تلجلج، فقلت: يا أبتى إنك تمضى فى خطبتك فإذا أتيت على ذكر على بن أبى طالب عرفت منك تقصيرًا!! قال: أوَفطنت لذلك؟ قلت: نعم. فقال: يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون مِن علىّ ما نعلم لتفرقوا عنا إلى أولاده!!.

فلما ولى عمر الخلافة، لم يكن عنده من الرغبة فى الدنيا ما يرتكب هذا الأمر العظيم لأجلها، فترك ذلك وكتب بتركه، وقرأ عوضه ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى**﴾ [النحل: ٩٠]، فحل هذا الفعل عند الناس محلاً حسنًا وأكثروا مدحه بسببه.

بعد مقتل الإمام على

ولما قتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى عام ٤٠هـ، بايع المسلمون بالخلافة للإمام الحسن بن على، حيث يروى ابن الأثير:

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ ٣.

وكان أول من بايعه قيس بن سعد الأنصارى وقال له: ابسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين. فقال الحسن: على كتاب الله وسنة رسوله فإنهما يأتيان على كل شرط. فبايعه الناس. وكان الحسن يشترط عليهم: إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت.

قال الشيخ المفيد (ولما قبض أمير المؤمنين عليه السلام بايعه أصحاب أبيه على حرب من حارب وسلم من سالم).

وبعد أن بويع له خطب الإمام الحسن بن على صبيحة الليلة التى قبض فيها أمير المؤمنين عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله وآله ثم قال:

«لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل. لقد كان يجاهد مع رسول الله فيقيه بنفسه، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يوجهه برايته فيكنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله على يديه، ولقد توفى عليه السلام فى الليلة التى عرج فيها بعيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قبض يوشع بن نون وصى موسى وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، أراد أن يبتاع بها خادمًا لأهله» ثم خنقته العبرة فبكى وبكى الناس معه.

ثم قال: «أنا ابن البشير، أنا ابن النذير، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه أنا ابن السراج المنير، أنا من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، أنا من أهل بيت افترض الله حبهم فى كتابه قال عز وجل: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا**﴾ [الشورى: ٢٣]. فالحسنة مودتنا أهل البيت».

ثم جلس فقام عبد الله بن عباس رحمة الله عليه بين يديه فقال: معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصى إمامكم فبايعوه فاستجاب له الناس وقالوا: ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا. وتبادروا إلى البيعة له بالخلافة وذلك يوم الجمعة الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة. فرتب العمال وأمر الأمراء، وأنفذ عبد الله بن العباس رضي الله عنه إلى البصرة، ونظر فى الأمور. وسار معاوية نحو العراق ليغلب عليه، فلما بلغ جسر منيج تحرك الحسن عليه السلام وبعث حُجر بن عدى فأمر العمال بالمسير، واستنفر الناس للجهاد فتثاقلوا عنه، ثم خف مع أخلاط من الناس بعضهم شيعة له ولأبيه عليهما السلام وبعضهم محكمة (أى من الخوارج رافعى شعار إن الحكم إلا لله) يؤثرون

قتال معاوية بكل حيلة، وبعضهم أصحاب فتن وطمع فى الغنائم، وبعضهم شكاك وبعضهم أصحاب عصبية اتبعوا رؤساء قبائلهم لا يرجعون إلى دين. فسار حتى أتى حمام عمر، ثم أخذ على دير كعب فنزل ساباط دون القنطرة وبات هناك.

فلما أصبح أراد عليه السلام أن يمتحن أصحابه ويستبرئ أحوالهم فى الطاعة له، ليتميز بذلك أولياؤه من أعدائه ويكون على بصيرة فى لقاء معاوية وأهل الشام. فأمر أن ينادى فى الناس بالصلاة جامعة فاجتمعوا، فصعد المنبر فخطبهم فقال: «الحمد لله بكل ما حمده حامد وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق وائتمنه على الوحى صلى الله عليه وآله.

أما بعد: فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا أنصح خلق الله لخلقه وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ولا مريداً له بسوء ولا غائلة، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة، ألا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى ولا تردوا علىَّ رأيى، غفر الله لى ولكم وأرشدنى وإياكم لما فيه المحبة والرضا».

فنظر الناس بعضهم إلى بعض وقالوا ما ترونه يريد بما قال؟ قالوا: نظنه والله يريد أن يصالح معاوية ويسلم الأمر إليه، فقالوا: كفر والله الرجل ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوه حتى أخذوا مصلاه من تحته ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جعال الأزدى فنزع مطرفه عن عاتقه، فبقى جالساً متقلداً السيف بغير رداء. ثم دعا بفرسه فركبه وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ومنعوا منه من أراده، فقال: «ادعوا إلىَّ ربيعة وهمدان» فدعوا له فأطافوا به ودفعوا الناس عنه وسار ومعه شوب من الناس، فلما مر فى مظلم ساباط، بدر إليه رجل من الخوارج فأخذ بلجام بغلته وبيده مغول وقال: الله أكبر أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل، ثم طعنه فى فخذه فشقه حتى بلغ العظم فاعتنقه الحسن عليه السلام وخرّا جميعًا إلى الأرض، فوثب إليه رجل من شيعة الحسن عليه السلام يقال له عبد الله بن خطل الطائى فانتزع المغول من يده وخضخض به جوفه.

وحمل الحسن عليه السلام على سرير إلى المدائن، فأنزل به على سعد بن مسعود الثقفى واشتغل بنفسه يعالج جرحه، وكتب جماعة من رؤساء القبائل إلى معاوية بالطاعة له

فى السر وحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الإمام الحسن عليه السلام إليه عند دنوهم من عسكره، أو الفتك به. وبلغ الحسن ذلك فازدادت بصيرة الحسن عليه السلام بخذلان القوم له وفساد نياتهم، ولم يبق معه من يأمن غوائله إلا خاصة من شيعته وشيعة أبيه أميرالمؤمنين عليه السلام، وهم جماعة لا تقوم لأجناد الشام.

فكتب إليه معاوية فى الهدنة والصلح، وأنفذ إليه بكتب أصحابه التى ضمنوا له فيها الفتك به وتسليمه إليه، واشترط له على نفسه فى إجابته إلى صلحه شروطًا كثيرة، وعقد له عقودًا كان فى الوفاء بها مصالح شاملة، فلم يثق به الحسن عليه السلام وعلم احتياله إلى ما التمس من ترك الحرب وإنفاذ الهدنة، لما كان عليه أصحابه مما وصفناه من ضعف البصائر فى حقه والفساد عليه والخلف منهم له وما انطوى كثير منهم عليه فى استحلال دمه وتسليمه إلى خصمه وميل الجمهور منهم إلى العاجلة وزهدهم فى الآجلة. فتوثق عليه السلام لنفسه من معاوية لتأكيد الحجة عليه والإعذار فيما بينه وبينه عند الله عز وجلّ وعند كافة المسلمين، واشترط عليه ترك سب أميرالمؤمنين عليه السلام والعدول عن القنوت عليه، فى الصلوات، وأن يؤمن شيعته رضى الله عنه ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذى حق منهم حقه، فأجابه معاوية إلى ذلك كله وعاهده عليه وحلف له بالوفاء به.

كما يروى ابن الأثير[1]: تسلم معاوية الأمر لخمس بقين من ربيع الأول من هذه السنة، وقيل: إنما سلم الحسن الأمر إلى معاوية لأنه لما راسله معاوية فى تسليم الخلافة إليه، خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر، فشيب السلام بالعداوة والصبر بالجزع، وكنتم فى مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل بحد السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضى. فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية! وأمضى الصلح. ولما عزم على تسليم الأمر إلى معاوية خطب الناس فقال: أيها الناس

(١) الكامل فى التاريخ جـ ٣.

إنما نحن أمراؤكم وضيفانكم ونحن أهل بيت نبيكم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وكرر ذلك حتى ما بقى فى المجلس إلا من بكى حتى سمع نشيجه.

وكانت خلافة الحسن على قول من يقول إنه سلم الأمر فى ربيع الأول خمسة أشهر ونحو نصف شهر، وعلى قول من يقول فى ربيع الآخر يكون ستة أشهر وشيئًا، وعلى قول من يقول فى جمادى الأولى يكون سبعة أشهر وشيئًا، والله تعالى أعلم.

خطبة معاوية ورد الإمام الحسن عليه

فلما تمت الهدنة على ذلك، سار معاوية حتى نزل بالنخيلة وكان ذلك يوم جمعة، فصلى بالناس ضحى النهار، فخطبهم وقال فى خطبته: إنى والله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا، إنكم لتفعلون ذلك، ولكنى قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم له كارهون ألا وإنى كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء، وجميعها تحت قدمى لا أفى بشىء منها له.

ثم سار حتى دخل الكوفة فأقام بها أيامًا، فلما تمت البيعة له من أهلها، صعد المنبر فخطب الناس وذكر أمير المؤمنين عليه السلام فنال منه ونال من الحسن وكان الحسن والحسين سلام الله عليهما حاضرين، فقام الحسين ليرد عليه، فأخذ بيده الحسن فأجلسه ثم قام فقال: «أيها الذاكر عليّا أنا الحسن وأبى علىّ وأنت معاوية وأبوك صخر وأمى فاطمة وأمك هند وجدى رسول الله وجدك حرب وجدتى خديجة وجدتك قتيلة، فلعن الله أخملنا ذكرًا وألأمنا حسبًا وشرنا قدمًا وأقدمنا كفرًا ونفاقًا» فقال طوائف من أهل المسجد: آمين آمين[1].

الخلافة والإمامة

بانتهاء خلافة الإمام الحسن بن على عليه السلام ونزوله عن السلطة لمعاوية بن أبى سفيان، انتهى ذلك اللقاء المؤقت بين الخلافة والإمامة والذى لم يدم سوى خمسة أعوام ونصف العام، وهى فترة حكومة الإمام علىّ والإمام الحسن من بعده.

(١) الإرشاد للشيخ المفيد، ومقاتل الطالبيين للأصفهانى.

بقى الإمام إمامًا للدين وهو الأحق بإمامة الدنيا، إلا أن إمامة الدنيا تحتاج إلى أدوات تختلف عن تلك التى تحتاجها إمامة الدين!!.

إمامة الدين هبة وفضل إلهى يمن بها الله على من يشاء من عباده.

أما السلطة الدنيوية فيمكن أن تكون بالقوة والغصب الجبرى!!.

وكما ورد فى الأثر (إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن يحب).

رأينا إذًا كيف ساد التخاذل صفوف المسلمين وتفرقت كلمتهم وضعفت نيتهم عن وأد الفتنة فى مهدها، مما حتم على الإمام الحسن إعادة النظر فى الموقف كله والبحث عن خيارات أخرى تحفظ دماء المسلمين وتحول دون فناء تلك القلة المؤمنة العارفة بفضل أئمة أهل البيت ووجوب طاعتهم.

لم يكن الأمر كما يصوره البعض الآن إقرارًا بشرعية النظام الأموى ولا تسليمًا بصحة السلطة القائمة على الجبر والغصب والإكراه، ولكنها حكمة التعامل مع الأمر الواقع، ولذلك فقد اشترط عدة شروط، أوردها الشيخ الصدوق فى كتاب (علل الشرائع).

يروى أبو الفرج الأصفهانى عن سفيان بن أبى ليلى قال: أتيت الحسن بن على حين بايع معاوية فوجدته بفناء داره وعنده رهط فقلت: السلام عليك يا مذل المؤمنين. فقال وعليك السلام يا سفيان ونزلت فعقلت راحلتى ثم جلست إليه فقال كيف قلت يا سفيان؟ قلت السلام عليك يا مذل المؤمنين. فقال لم جرى هذا منك إلينا؟ قلت أنت والله بأبى وأمى أذللت رقابنا حين أعطيت هذا الطاغية البيعة وسلمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك، فقد جمع الله عليك أمر الناس، فقال يا سفيان إنا أهل بيت إذا علمنا الحق تمسكنا به وإنى سمعت عليّا يقول لا تذهب الأيام والليالى حتى يجتمع أمر هذه الأمة على رجل واسع السرة ضخم البلعوم يأكل ولا يشبع لا ينظر الله إليه ولا يموت حتى لا يبقى له فى السماء عاذر ولا فى الأرض ناصر وإنه لمعاوية بن أبى سفيان وإنى عرفت أن الله بالغ أمره. ثم قال ما جاء بك يا سفيان؟؟ قلت حبكم والذى بعث محمداً بالهدى ودين الحق، قال أبشر يا سفيان فإنى سمعت عليّا يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يرد على الحوض أهل

بيتى ومن أحبهم من أمتى كهاتين ـ يعنى السبابة والوسطى ـ إحداهما تفضل على الأخرى أبشر يا سفيان فإن الدنيا تسع البر والفاجر حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد.

ذهبت السلطة لمن أرادها وسعى لها سعيها من أهل الدنيا ولحق به من لحق طمعًا فى فضلاته وغنائمه، وبقيت الإمامة عند أهل الإمامة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وصدق الله العلى العظيم ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)**﴾ [الإسراء: ١٨ ـ ٢١].

إمامة الدين كانت وما زالت حاضرة فى ضمائر المؤمنين، أما السلطة الدنيوية فهى ظل زائل وعرض لا يدوم.

كتب بعض الكتاب عن صلح الإمام الحسن مع معاوية بن أبى سفيان متجاهلين كل تلك الوقائع التى ذكرناها، والتى ساقت الإمام الحسن لاتخاذ قراره التاريخى بوضع الحرب، زاعمين أن الأمر كان إقرارًا منه بشرعية النظام الأموى المتغلب.

لم يكن الإمام الحسن بن علىّ عليه السلام أقل مضاء ولا عزمًا على إحقاق الحق وإبطال الباطل من أبيه علىّ ولا من أخيه الحسين، والفارق بين هؤلاء الأئمة لم يكن سوى اختلاف الظرف الذى عاشه وعاينه كل منهم، وتبقى المبادئ والأسس التى ساروا عليها كلهم واحدة.

نهاية الموقف

ولما استقر الصلح بين الإمام الحسن ومعاوية، خرج عليه السلام إلى المدينة فأقام بها منتظرًا لأمر ربه إلى أن تم لمعاوية عشر سنين من إمارته وعزم على البيعة ليزيد، فدس إلى

الإمام الحسن من سمه فبقى عليه السلام مريضًا أربعين يومًا ومضى عليه السلام للقاء ربه فى صفر سنة خمسين من الهجرة وله يومئذ ثمان وأربعون سنة، فكانت مدة إمامته عشر سنين، وتولى أخوه ووصيه الحسين عليه السلام غسله وتكفينه ودفنه عند جدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رحمة الله عليها بالبقيع.

* * *